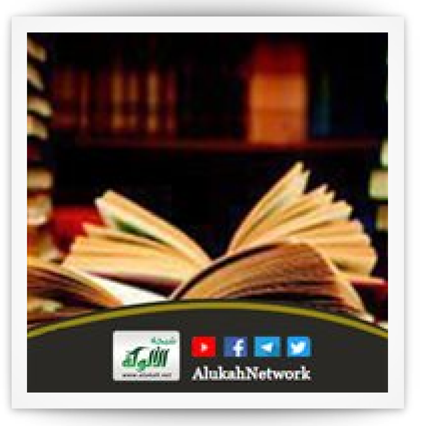
من الدلائل العقلية على صدق النبي صلى الله عليه وسلم (5) (حادثة الإفك وصدق النبوة)





د. علي حسن الروبي

مقالات متعلقة

تاريخ الإضافة: 8/1/2023 ميلادي - 16/6/1444 هجري

الزيارات: 4773

من الدلائل العقلية على صدق النبي صلى الله عليه وسلم

الحلقة الخامسة (حادثة الإفك وصدق النبوة)

نعرض في هذه الحلقة من حلقات الدلائل العقلية على صدق النبوة لحادثة شهيرة من حوادث السيرة النبوية، وفيها من شواهد صدق النبوة وصحة الرسالة لمن تأمَّل وتدبَّر.

وهذه الحادثة هي حادثة الإفك، وحريٌّ بنا قبل الكلام عن أوجه دلالاتها على النبوة أن نسوق القصة كما أوردتها كتب الحديث النبوي وكتب السيرة.

فعن ابن شهاب الزهري، عن عروة بن الزبير، وسعيد بن المسيب، وعلقمة بن وقاص الليثي، وعبيدالله بن عبدالله بن عتبة، عن عائشة رضي الله عنها زوج النبي صلى الله عليه وسلم حين قال لها أهل الإفك ما قالوا، فبرأها الله منه، قال الزهري: وكلهم حدثني طائفةً من حديثها، وبعضهم أوعى من بعض، وأثبت له اقتصاصًا، وقد وعيتُ عن كل واحد منهم الحديث الذي حدثني عن عائشة، وبعض حديثهم يصدق بعضًا زعموا أن عائشة، قالت: ((كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا أراد أن يخرج سفرًا أقرع بين أزواجه، فأيَّتهن خرج سهمها، خرج بها معه، فأقرع بيننا في غزاةٍ غزاها، فخرج سهمي، فخرجت معه بعدما أُنزل الحجاب، فأنا أُحمل في هودج، وأُنزل فيه، فسِرنا حتى إذا فَرَغ رسول الله صلى الله عليه وسلم من غزوته تلك، وقَفَل ودنَونا من المدينة آذَنَ ليلةً بالرحيل، فقمتُ حين آذنوا بالرحيل، فمشيت حتى جاوزت الجيش، فلما قضيت شأني أقبلت إلى الرحل، فلمست صدري، فإذا عِقدٌ لي من جَزْعِ أظْفَارٍ قد انقطع، فرجعت، فالتمست عقدي، فحبسني ابتغاؤه، فأقبل الذين يرحلون لي، فاحتملوا هودجي، فرحلوه على بعيري الذي كنت أركبُ وهم يحسبون أني فيه، وكان النساء إذ ذاك خِفافًا لم يَثْقُلْنَ ولم يَغْشَهُنَّ اللحم، وإنما يأكلن العلقة من الطعام، فلم يستنكر القوم حين رفعوه ثقل الهودج، فاحتملوه وكنت جاريةً حديثة السن، فبعثوا الجمل وساروا، فوجدت عقدي بعدما استمر الجيش، فجئت منزلهم وليس فيه أحد، فأمَّمت منزلي الذي كنت به، فظننت أنهم سيفقدونني، فيرجعون إليَّ، فبينا أنا جالسة غلبتني عيناي، فنمتُ وكان صفوان بن المعطل السلمي ثم الذكواني من وراء الجيش، فأصبح عند منزلي، فرأى سواد إنسان نائم، فأتاني وكان يراني قبل الحجاب، فاستيقظت باسترجاعه حين أناخ راحلته فوطِئَ يدها، فركبتها، فانطلق يقود بي الراحلة حتى أتينا الجيش بعدما نزلوا مُعَرِّسِين في نحر الظهيرة، فهلك مَن هلك، وكان الذي تولى الإفك عبدالله بن أُبيّ بن سلول، فقدمنا المدينة، فاشتكيت بها شهرًا والناس يُفِيضون من قول أصحاب الإفك، ويَرِيبُني في وجعي أني لا أرى من النبي صلى الله عليه وسلم اللطف الذي كنت أرى منه حين أمرض، إنما يدخل فيُسلِّم، ثم يقول: كيف تِيكُمْ؟ لا أشعر بشيء من ذلك حتى نَقَهْتُ، فخرجت أنا وأم مسطح قبل المناصع؛ مُتَبَرَّزنا، لا نخرج إلا ليلًا إلى ليل، وذلك قبل أن نتخذ الكُنُفَ قريبًا من بيوتنا، وأمرنا أمر العرب الأُوَلِ في البَرِّيَّةِ أو في التنزُّه، فأقبلت أنا وأم مسطح بنت أبي رُهْمٍ نمشي، فعَثَرَتْ في مِرْطِها، فقالت: تعِسَ مِسطح، فقلت لها: بئس ما قلتِ، أتسبين رجلًا شهد بدرًا؟ فقالت: يا هَنْتَاهْ، ألم تسمعي ما قالوا؟ فأخبرتني بقول أهل الإفك، فازددت مرضًا على مرضي، فلما رجعت إلى بيتي دخل عليَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم، فسلَّم فقال: كيف تيكم؟ فقلت: ائذن لي إلى أبويَّ، قالت: وأنا حينئذٍ أريد أن أستيقن الخبر من قبلهما، فأذن لي رسول الله صلى الله عليه وسلم، فأتيت أبوي فقلت لأمي: ما يتحدث به الناس؟ فقالت: يا بُنيَّة، هوِّني على نفسك الشأن، فوالله لقلما كانت امرأةٌ قط وضيئةٌ عند رجل يحبها ولها ضرائرُ، إلا أكْثَرْنَ عليها، فقلت: سبحان الله! ولقد يتحدث الناس بهذا؟ قالت: فبتُّ تلك الليلة حتى أصبحت لا يرقأ لي دمع، ولا أكتحل بنوم، ثم أصبحت، فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم علي

بن أبي طالب، وأسامة بن زيد حين استَلْبَثَ الوحي، يستشيرهما في فراق أهله، فأما أسامة، فأشار عليه بالذي يعلم في نفسه من الود لهم، فقال أسامة: أهلُك يا رسول الله، ولا نعلم - والله - إلا خيرًا، وأما علي بن أبي طالب فقال: يا رسول الله، لم يضيِّقِ الله عليك، والنساء سواها كثير، وسَلِ الجارية تصدقك، فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم بَرِيْرَة، فقال: يا بريرة، هل رأيتِ فيها شيئًا يَرِيبكِ؟ فقالت بريرة: لا والذي بعثك بالحق، إن رأيت منها أمرًا أغْمِصُهُ عليها قط، أكثر من أنها جارية حديثة السن، تنام عن العجين، فتأتي الداجن فتأكله، فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم من يومه، فاستَعْذَرَ من عبدالله بن أبي بن سلول، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: من يعذِرني من رجل بلغني أذاه في أهلي، فوالله ما علمت على أهلي إلا خيرًا، وقد ذكروا رجلًا ما علمت عليه إلا خيرًا، وما كان يدخل على أهلي إلا معي، فقام سعد بن معاذ، فقال: يا رسول الله، أنا والله أعذِرك منه إن كان من الأوس ضربنا عنقه، وإن كان من إخواننا من الخزرج أمرتنا، ففعلنا فيه أمرك، فقام سعد بن عبادة - وهو سيد الخزرج، وكان قبل ذلك رجلًا صالحًا ولكن احْتَمَلَتْهُ الحمِيَّة - فقال: كذبت لَعَمْرُ الله، لا تقتله، ولا تقدر على ذلك، فقام أسيد بن حضير فقال: كذبت لعمر الله، والله لنقتلنَّه، فإنك منافق تجادل عن المنافقين، فثار الحيَّان؛ الأوس والخزرج، حتى هموا، ورسول الله صلى الله عليه وسلم على المنبر، فنزل، فخفَّضهم حتى سكتوا، وسكت، وبكيت يومي لا يرقأ لي دمع، ولا أكتحل بنوم، فأصبح عندي أبواي، وقد بكيت ليلتين ويومًا حتى أظن أن البكاء فالقٌ كبدي، قالت: فبينا هما جالسان عندي، وأنا أبكي، إذ استأذنت امرأة من الأنصار، فأذِنت لها، فجلست تبكي معي، فبينا نحن كذلك إذ دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم، فجلس ولم يجلس عندي من يوم قيل فيَّ ما قيل قبلها، وقد مكث شهرًا لا يُوحَى إليه في شأني شيء، قالت: فتشهَّد، ثم قال: يا عائشة، فإنه بلغني عنك كذا وكذا، فإن كنتِ بريئةً، فسيبرئكِ الله، وإن كنت ألممتِ بذنبٍ، فاستغفري الله وتوبي إليه؛ فإن العبد إذا اعترف بذنبه، ثم تاب، تاب الله عليه، فلما قضى رسول الله صلى الله عليه وسلم مقالته، قَلَصَ دمعي حتى ما أُحِسُّ منه قطرةً، وقلت لأبي: أجِبْ عني رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال: والله ما أدري ما أقول لرسول الله صلى الله عليه وسلم، فقلت لأمي: أجيبي عني رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما قال، قالت: والله ما أدري ما أقول لرسول الله صلى الله عليه وسلم، قالت: وأنا جارية حديثة السن، لا أقرأ كثيرًا من القرآن، فقلت: إني والله لقد علمت أنكم سمعتم ما يتحدث به الناس، ووقر في أنفسكم وصدقتم به، ولئن قلت لكم إني بريئة، والله يعلم إني لبريئة لا تصدقوني بذلك، ولئن اعترفت لكم بأمر، والله يعلم أني بريئة لتصدِّقُنِّي، والله ما أجد لي ولكم مثلًا، إلا أبا يوسف؛ إذ قال: ﴿ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ ﴾ [يوسف: 18]، ثم تحولت على فراشي وأنا أرجو أن يبرئني الله، ولكن والله ما ظننت أن ينزل في شأني وحيًا، ولأنا أحقر في نفسي من أن يتكلم بالقرآن في أمري، ولكني كنت أرجو أن يرى رسول الله صلى الله عليه وسلم في النوم رؤيا يبرئني الله، فوالله ما رام مجلسه ولا خرج أحد من أهل البيت، حتى أُنزل عليه الوحي، فأخذه ما كان يأخذه من البُرَحَاءِ، حتى إنه لَيتحدَّرُ منه مثل الجُمَان من العرق في يوم شاتٍ، فلما سُرِّي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يضحك، فكان أول كلمة تكلم بها، أن قال لي: يا عائشة، احمدي الله، فقد برَّأكِ الله، فقالت لي أمي: قومي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقلت: لا والله، لا أقوم إليه، ولا أحمد إلا الله؛ فأنزل الله تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِنْكُمْ ﴾ [النور: 11]؛ الآيات، فلما أنزل الله هذا في براءتي، قال أبو بكر الصديق رضي الله عنه وكان يُنفِق على مِسطح بن أُثاثة لقرابته منه: والله لا أنفق على مسطح شيئًا أبدًا بعدما قال لعائشة؛ فأنزل الله تعالى: ﴿ وَلَا يَأْتَلِ أُولُو الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ ﴾ إلى قوله ﴿ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ [النور: 22]، فقال أبو بكر: بلى والله إني لأحب أن يغفر الله لي، فرجع إلى مسطح الذي كان يجري عليه، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يسأل زينب بنت جحش عن أمري، فقال: يا زينب، ما علمتِ؟ ما رأيتِ؟ فقالت: يا رسول الله، أحمي سمعي وبصري، والله ما علمت عليها إلا خيرًا، قالت: وهي التي كانت تساميني، فعصمها الله بالورع)).

هذه هي القصة كما روتها كتب السنة وكتب السيرة، والذي نقف عنده منها فيما يتعلق بأدلة صدق النبوة أمران:

الأمر الأول: استلباث الوحي شهرًا كاملًا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم.

ووجه دلالة هذا على صدق النبي صلى الله عليه وسلم ظاهرٌ للمتأمل؛ إذ لو كان محمد صلى الله عليه وسلم غير صادق في دعوى النبوة وفي نزول الوحي عليه من عند الله، وكان - كما يقول خصومه - يأتي بهذا القرآن من عند نفسه وينسُبه لله تعالى، فما هو الداعي لذلك الرجل غير الصادق أن يترك عِرضه يُنهش لمدة شهر كامل، وتُتهم زوجته بالفاحشة القبيحة، ويخوض المنافقون في عِرضها، ويصل الأمر إلى تورط بعض المسلمين وسقوطهم في وحل الشائعة التي أطلقها رأس المنافقين بالمدينة عبدالله بن أبي بن سلول؟ أقول: ما الداعي لأن يترك ذلك الرجل الذي يزعم خصومه أنه يأتي بالوحي من عند نفسه، يترك زوجته الأثيرة عنده والمقربة إلى قلبه أن يُنهش عرضها شهرًا كاملًا، ولا يخترع قرآنًا يُوقِف به هذه الشائعات ويُبرِّئ ساحة زوجته بعد يومين أو ثلاثة أيام مثلًا، أو حتى بعد أسبوع من انتشار الإفك بين الناس في المدينة؟

هل هناك إنسان عاقل يملك ما يدافع به عن عرض زوجته وعن شرف بيته، ويتأخر عن ذلك، ولا يأتي به؟ لو كان هذا القرآن من عند محمد بن عبدالله صلوات الله عليه لا من عند الله تعالى، لكان العقل والمنطق يقتضيان أن يبادر محمدٌ ويذكر للناس آياتِ سورة النور التي نزلت في براءة عائشة رضي الله عنها، ليتوقف الناس عن لَوكِ هذه الشائعة الخطيرة المتعلقة بشرفه وعرضه، كما توقفوا عنها بعد أن نزل بها الوحي بعد الحادثة بشهر.

إن المفترض عند الخصوم أن محمدًا يخترع القرآن ليخدع الناس ويحقق أهدافه الشخصية بادعاء النبوة وحيازة الملك والجاه، ويستعمل ما يسميه قرآنًا ووحيًا عند الحاجة؛ لأن الناس إذا قيل لهم هذا كلام الله وحكم الله وأمر الله، انقادوا واستجابوا.

فسؤالنا للخصوم: نعم، إن الناس كانوا ينقادون للوحي وللقرآن، وفي هذه الحادثة على وجه الخصوص انْقَادَ الناس وكفُّوا عن الاستماع للشائعة المغرضة، أو الخوض فيها بمجرد نزول الوحي، وأُقيم حد الجلد على مَن خاضوا في ذلك مِن المسلمين... فما الذي منع محمدًا صلوات الله عليه

- لو كان هذا القرآن من عنده - أن يخترع هذه الآيات عندما علِم بانتشار هذه الشائعة، وكان ساعتها سيحصل من استجابة الناس وانتهائهم من الخوض أو حتى التوقف والحيرة والتردد في شأن هذه الشائعة، ما حصل لهم من التوقف عن ذلك عندما نزل الوحي بعد شهر كامل منها؟

بل، لا حاجة لمحمد صلى الله عليه وسلم لو كان غير صادق – حاشاه - أن يخترع آيات معينة، بل يكفي أن يقول: إنه رأى رؤيا في النوم تثبت براءة زوجه، وهذا كفيل بتصديقه بين أصحابه كما كان معهودًا منهم تجاهه، فما الذي منعه من ذلك؟

وشيء آخر:

يتضح من سياق هذه القصة الأذى النفسي الذي تعرض له النبي صلى الله عليه وسلم، وأي إنسان عاقل سويٍّ يدرك مدى العذاب النفسي الذي يتعرض له من يُتَّهم في عِرضه وشرفه.

إن الفظاعة والقسوة النفسية لهذه التهمة الشنيعة - رمي العرض - لا تتصور، بل إنها أودت بحياة بعض الناس كمدًا وقهرًا، فما الذي يجعل محمدًا صلوات الله عليه يعرض نفسه لهذا الأذى لمدة شهر كامل، وهو يملك إيقافه ورفعه في لحظة واحدة لو كان القرآن من عند نفسه لا من عند الله؟!

بل إن هذا العذاب والأذى لم يكن قاصرًا على شخصه هو، فيقول قائل: إن تحمل ذلك لغرض في نفسه أو هدف من أهدافه، على أنه لا يوجد عربي عاقل يُضحِّي بسمعته لأي غرض من الأغراض، دَعْ عنك أن الشائعة بلغت من الانتشار في مجتمع المدينة والتأثير في الناس ما حمل النبي صلى الله عليه وسلم على التفكير في فراق أهله، واستشار عليًّا وأسامة في ذلك.

أعود إلى قولي: إن الأذى والألم الذي سببته شائعة الإفك لم يكن مقتصرًا على شخص النبي صلى الله عليه وسلم، بل أصاب أقرب الناس إليه؛ أبا بكر، صديقه الأثير، وأحب الرجال إلى قلبه، وعائشة امرأته وأحب أزواجه إليه، وأعلاهن منزلة في قلبه، فهَبْهُ تصبَّر على الأذى اللاحق بشخصه هو، فكيف تصبر على تأذِّي وتألم أقرب الناس إليه، وفي يده أن يمنع ذلك باختراع آيات البراءة لو كان الوحي من عند هو؟

بل إننا لو نحَّينا المشاعر والألم جانبًا، ونحينا كذلك مسألة العرض والشرف مع عظيم منزلتها في المجتمع العربي، لو نحينا جميع ذلك وتكلمنا بمنطق الأمن القومي - إن صح التعبير - لوجدنا أن حادثة الإفك هذه من الحوادث المهدِّدة للأمن القومي؛ فانتشار شائعة متعلقة بشرف رئيس الدولة وتمس سمعته، وفيها تلطيخ لعرض زوجته - لَهِيَ من أجدر ما تجعل ذلك الشخص حريصًا كل الحرص على التحرك لوأدِها، وإيقاف البلبلة الناتجة عن ترويج تلك الشائعة، قبل أن يستفحل خطرها، ويتعاظم أمرها، وتخرج تبعاتها عن السيطرة والتحكم.

فمالِ لمدعي النبوة في زعمكم لم يتحرك لشيء من ذلك، وترك مجتمع المدينة في مهبِّ هذه الشائعة شهرًا، وفي كل يوم تتفاقم هذه الأزمة عن اليوم الذي قبله، وهو قادر على إيقاف هذه الشائعة ووأدها في مهدها، قبل أن تبلغ ما بلغت بأن يدَّعيَ أن الوحي جاءه ببراءة زوجه وكذب الشائعة، وما هو إلا أن يقول ذلك، فيُسلِّم الناس له كما سلموا له عندما نزل الوحي عليه بآيات سورة النور بعد شهر كامل؟!

الأمر الثاني: موقف القرآن الكريم من تصرف أبي بكر الصديق تجاه مسطح.

أما الأمر الثاني الذي نقف في هذه القصة؛ فهو: موقف القرآن الكريم من تصرف أبي بكر الصديق تجاه مسطح، رضي الله عنهما.

فإن أبا بكر رضي الله عنه - مع كان عليه من المنزلة الرفيعة في الأخلاق والدرجة المنيفة من الشمائل والمناقب - قد تصرف مع مسطح بما تقتضيه الجِبلة الإنسانية والطبيعة البشرية، عندما أقسم أن يتوقف عن الإحسان إلى مسطح، وترك مساعدته ماليًّا، بعد تورطه القبيح في شائعة الإفك، وهذا إجراء عادي نفعل مثله وأكثر منه عندما تأتينا الإساءة ممن نحسن إليهم، فكيف إذا كانت الإساءة إساءة غير عادية، بل متعلقة بالعرض والشرف؟!

بل لقائل أن يقول: إن أبا بكر لم يتصرف على مقتضى الطبيعة البشرية، لكنه كبحها أيضًا؛ إذ إنه لو كان متصرفًا بمقتضاها لسعى في إلحاق الأذى بمسطح ومعاقبته، لا أن يكتفي بإيقاف الإحسان إليه.

أما الشاهد من ذلك على صحة النبوة، وأن هذا القرآن من عند الله تعالى، لا من عند محمد صلى الله عليه وسلم؛ فلما جاء به القرآن من توجيه في شأن تصرف أبي بكر رضي الله عنه ومسلكه مع مسطح رضي الله عنه، فإن القرآن قد عقَّب الآيات المتعلقة ببراءة عائشة، وكشف حقيقة الإفك، وعتاب المؤمنين على موقفهم من تلك الشائعة، وتوجيههم للتعامل الصحيح مع الشائعات من هذا النوع فيما يُستقبَل، عقَّب القرآن ذلك بنهي أبي بكر عن تصرفه الجبلي البشري وموقفه الذي اتخذه تجاه مسطح؛ فقال: ﴿ وَلَا يَأْتَلِ أُولُو الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَى وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ [النور: 22].

فها هو يرشد أبا بكر إلى معاودة الإحسان إلى مسطح الفقير المهاجر في سبيل الله، وألَّا يَحُول تورطه في شائعة الإفك وقذف عرض ابنته دون إحسانه إليه.

أترى لو كان هذا القرآن ليس من عند الله تعالى، بل اخترعه رجل كاذب على الله، وكاذب على الناس، ويمارس أحط أنواع الجرائم الأخلاقية (خداع الناس والكذب على الله)، هل يكون من المعقول ومن المنطقي أن يهتم ذلك الرجل الكاذب، مدعي النبوة والرسالة زورًا وبهتانًا، بهذه اللفتة الأخلاقية المتعالية، والتي تخالف الطبيعة البشرية وتنازعها وتتسامى عليها، ويرشد الناس إلى مغالبة طبيعة النفس ومقتضى الجبلة، ويأمرهم بمواصلة الإحسان التطوعي إلى أناس كان من شأنهم أن قدموا الإساءة عن الإحسان السابق، عوضًا عن تقديم الشكر والامتنان؟!

أي منطق وأي عقل يقضي بأن هذه الفضائل العالية وهذا السمو الأخلاقي يهتم به، ويرشد إليه، ويدل عليه، ويلزم الناس به رجلٌ كاذب يدعي النبوة، ويخادع الناس، ويفتري على الله؟!

ما شأن الكاذب الدجَّال مدعي النبوة بالأخلاق والفضائل ليحرص عليها، ويرشد الناس إليها، حتى في أحلك الظروف، وأضنك الأحوال، وأفقم الأزمات؟!

ألَا يقضي العقل أن الكاذب الدجال الدعِيَّ تأمره أخلاقه بأن ينتقم من كل المتورطين في الشائعة التي نالت عِرضه، وآذت أهل بيته، ولو وصل ذلك إلى قتلهم والتنكيل بهم؟! هب أنه أراد الانتقام والتنكيل وعجز عنهما، فما شأنه يأمر والد امرأته بأن يعاود الإحسان إلى أحد المتورطين في شائعة الإفك على نحو ما كان يفعل من قبل، وألَّا تمنعه الإساءة من الالتزام الأخلاقي تجاه الضعفاء والمساكين والفقراء؟!

أما والله لا يقدر على هذه الأخلاق كاذب دعيٌّ، ولا تتأتى منه أبدًا، وما كان هذا القرآن من عند محمد صلوات الله عليه، بل من عند الله تعالى، وما كان محمد صلوات الله عليه إلا نبي صادق، كملت فيه الأخلاق والفضائل.
